في حدائق العرب

ظهر في الشهر الغابر كتابٌ عنوانه « حديقة الزهر » وضعهُ باللغــة الفرنسية حضرة الاديب واصف بك بطرس غالي، ضمنهُ بحثاً شائقاً في الشعر العربي وأنواعهِ وأساليبهِ، مع ترجمة مقطوعاتٍ شعرية منهُ . فقابل الفرنجُ هذا الكتاب بالارتياح لأنهُ عرَّفهم بشاعرية قومٍ لهم في عالم الخيال المقام الارفع . ومن جملة ما ترجمهُ واصف بك الحادثة الآتية رويها لقرّائنا في أصلها العربي، لما فيها من بلاغة الوصف وجمال الأسلوب:

بشر بن أبي عوانة والأسد

كان بشر بن أبي عوانة العبــدي صعلوكاً . فأغار على ركب فيهم امرأةٌ جميلة، فتزوَّج بها، وقال : ما رأيتُ كاليوم . فقالت :

أعجب بشراً حَوَرٌ في عيني　　وساعــدٌ أبيضُ كاللجينِ
ودونهُ مسرحُ طرف العينِ　　خمصانةٌ ترفلُ في حجلينِ
أحسن من يمشي على رجلينِ　　لو ضمَّ بشرٌ بينها وبيني
أطال هجري وأدام بيني　　ولو يقيس زينهــا بزيني
لأسفر الصبحُ لذي عينينِ

قال بشر : ويحكِ من عنيت ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة . فقال : أهي من الحسن بحيث وصفتِ ؟ قالت : وأكثر وأزيد ، فأنشأ يقول :

ويحك يا ذات الثنايا البيضِ　　ما خلتني عنك بمستعيضِ
فالآن إذ لوَّحتِ بالتعريضِ　　خلوتِ جوًّا فاصفري وبيضي
لا ضُمَّ جفناي على تغميضِ　　إن لم أشل عرضي من الحضيضِ

ثم أرسل الى عمّهِ يخطب ابنته ، ومنعهُ العمُّ أمنيته ، فآلى ألاَّ يرعي على أحدٍ منهم ، إِن لم يزوّجه ابنته . ثم كثرت مضرَّاته فيهم ، واتصلت مضرَّاته اليهم . فاجتمع رجال الحيّ الى عمه وقالوا : كفَّ عنا مجنونك . فقال : لا تلبسوني عاراً ، وأمهلوني حتى أُهلكه ببعض الحِيَل . فقالوا : أنت وذاك . ثم قال له عمه : اني آليت أن لا أزوّجَ ابنتي هذه إِلاَّ ممن يسوق اليها الف ناقةٍ مَهراً ، ولا أرضاها إِلاَّ من نوق خزاعة . وغرض العم كان أن يسلك « بشر » الطريقَ بينهُ وبين خزاعه ، فيفترسهُ الأسد. لأنَّ العرب قد كانت تحامت عن ذلك الطريق ؛ وكان فيه أسدٌ يسمَّى داذاً ، وحية تدعى شجاعاً ، يقول فيهما قائلهم :

افتكُ من داذٍ ومن شجاعِ ان يكُ داذٌ سيدَ السباعِ
فانها سيّدةُ الافاعي

ثم إِنَّ بشراً سلك ذلك الطريق ، فما نصفّه ، حتى لقي الأسد. وقمص مهره ، فنزل وعقره . ثم اخترط سيفهُ الى الأسد ، واعترضه وقطَّهُ ، ثم كتب بدم الأسد على قميصهِ الى ابنة عمه قصيدته المشهورة التي مطلعها

أفاطِمَ ، لو شهدتِ ببطن خبتٍ وقد لاقى المزبرُ أخاك بشرا

فلماً بلغت الأبياتُ عمَّهُ ، ندم على ما منعهُ من تزويجها ، وخشيَ أن تغتالَهُ الحيةُ ، فقام في أثره وبلغه وقد ملكتهُ سورة الحية . فلماً رأى عمه ، أخذتهُ حمية الجاهلية ، فجعل يدَهُ في فم الحية ، وحكّم سيفه فيها فقال :

بشر الى المجد بعيدهمهُ لما رآه بالعراء عمهُ
قد ثكلته نفسهُ وامه جاشت بهِ جائشةٌ تهمهُ

قام الى ابنٍ للفلا يؤمه　　فغاب فيهِ يدُهُ وكمهُ

ونفسه نفسي وسمي سمهُ

فلما قتل الحية، قال عمه : اني عرَّضتك طمعاً في أمرٍ ثنى الله عناني عنهُ، فارجع لازوِّجك ابنتي . فلما رجع جعل بشر يملأ فمه فخراً، حتى طلعَ أمرد كشقّ القمر على فرسه مدجّجاً في سلاحه . فقال بشر : ياعمّ اني اسمع حسَّ صيد . وخرج فاذا بغلامٍ على قيدٍ فقال : ثكلتك أُمك يا بشر، إن قتلت دودة وبهيمةً تملأ ماضغيك فخراً ؟ أنت في أمان ان سلَّمت عمك . فقال بشر: من أنت لا أم لك ؟ قال : اليوم الاسود، والموت الأحمر. فقال بشر : ثكلتك من سلحتك« قذفت بك من بطنها » فقال : يا بشر ومن سلحتك أيضاً . وكرَّ كلٌّ واحدٍ منهما على صاحبه، فلم يتمكن بشرٌ منهُ وأمكن الغلام عشرين طعنةً في كلية بشر، كلما مسَّهُ شبا السنان حماه عن بدنه ابقاءً عليهِ . ثم قال : يا بشر كيف ترى أليس لو أردتُ لأطعمتُك أنيابَ الرمح ؟

ثم القى رمحه واستلَّ سيفهُ فضرب بشراً عشرين ضربة بعرض السيف، ولم يتمكَّن بشرٌ من واحدة . ثم قال : يا بشر سلّم عمَّك واذهب في أمان . قال : نعم ولكن بشريطة أن تقولَ لي من أنت . قال : أنا ابنك . فقال : يا سبحان الله ما قارنتُ عقيلةً قط، فانّى لي هذه المنحة ؟ فقال : أنا ابنُ المرأة التي دلَّتك على ابنة عمك . فقال بشر :

تلك العصا من هذه العصية　　هل تلد الحيةَ غيرُ الحيه

وحلف لاركب حِصاناً ولا تزوَّج حَصاناً، ثم زوج ابنة عمه لابنه